

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 103 - 117
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

التواجد الروماني في الصحراء بين الإستراتيجية الدفاعية والمصالح الإقتصادية

محمد تكيالين
قسم العلوم الإنسانية المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000, الجزائر

بالرغم مما مثلته الصحراء، من أخطار كبيرة وحواجز قاسية يصعب اختراقها في وجه التوسعات الرومانية نحو الجنوب، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمتهم في ربط علاقات واسعة مع سكانها، إنطلاقا من إدراكهم الجيد لمنافعها الإقتصادية على دولتهم. ولأن الأمر إرتبط بالجانب الإقتصادي فإن الإطار العام الذي ستحدد فيه تلك الإتصالات سيكون حتما مبنيا على علاقات سلمية مع سكانها يحقق فيها الجميع منافع متبادلة كثيرة، غير أن الحقائق التاريخية كانت تشير عكس ذلك، وذلك انطلاقا من تباين أهداف وطبيعة العناصر التي لعبت الأدوار الرئيسية في تلك الأحداث وهم الرومان المحتلين والأهالي من النوميد والجيتول والمور الذين سلبت منهم أملاكهم وأملاك أجدادهم عن طريق القهر وحدة السيف والإبعاد القصري بإتجاه المناطق الصحراوية القاحلة، وهي الاسباب التي دفعتهم الى السعي بكل وسيلة إلى إسترداد حقوقهم المغتصبة. وفي ظل تلك الأحداث تبرز ملامح صراع عنيف يسعى من خلاله كل طرف إلى الإمساك بزمام الأمور بكل قوة، وباستعمال شتى الوسائل، اختارت مسرحا لأحداثها الحدود الشمالية الفاصلة بين الصحراء والمناطق التلية. ومن البديهي جدا أن لا تمر أحداث ذلك الصراع دون أن تترتب عنها نتائج، وتطورات، على إنسان، وحيوان، وعمران تلك المناطق، التي إستطاعت ذاكرة التاريخ أن تحفظها من خلال الوثائق المكتوبة والآثار المتبقية في تلك الأرجاء الواسعة من الصحراء التي بلغها الرومان، وانطلاقا مما سبق ذكره سنحاول في عجالة أن نبين دور الرومان ونتائج سياساتهم في مواجهة تهديدات السكان المحليين في الصحراء.

الصحراء في تصور المؤرخين القدماء

احتفظت الصحراء في أطوارها المطرية الأخيرة قبل سيادة حالة الجفاف الحالية برطوبة سمحت بوجود كثافة سكانية كانت اشد مما هي عليه في العصر الراهن، وقد شملت مناطق واسعة من صحراء بلاد المغرب، وجدت دلائلها في الجبال والأودية الكبرى، كما أشارت إلى ذلك الدراسات الأثرية التي أجريت من طرف البعثات العلمية المتخصصة وأثبتت وجود

وفرة في الأماكن الصالحة للسكن بمناطق كثيرة مثل الهوقار، وفزان، وتبستي، والصحراء الشمالية، وهو ما يفسره إستمرار وجود بعض الحيوانات في مناطق التلال. وبتراجع الفترة المطرية في شمال إفريقيا وصحراءها الواسعة إنعكست الأوضاع المناخية بشكل سلبي كبير(1)، مخلفة أوضاع شبه عزلة وإتصالات محدودة مع العالم الخارجي، بحيث إقتصرت العلاقات مع أوروبا في الشمال على جبل طارق وصقلية، أما من الناحية الجنوبية، فقد إقتصرت اتصالاتهم بالخصوص على ممر تريبوليتانيا(2).

وبالرغم من أن الصحراء كانت تمثل لغزا للعناصر القادمة من الضفة الشمالية للمتوسط، حيث كانوا يعتبرونها نهاية العالم المتحضر، ومع ذلك لم تكن مغيبة كلية في فكرهم الأدبي، سواء تعلق الأمر بالأدب الإغريقي أو الروماني على السواء، ويمكننا إستنباط ذلك من كتابات بعض المؤرخين والجغرافيين القدماء الذين خلفوا لنا مؤلفات عدة تتضمن جوانب مختلفة عن معارفهم حول ذلك المجال الجغرافي الواسع من العالم، وعن تصوراتهم لها، والإمتدادات الجغرافية الذي يضعونها فيها. غير أن المؤكد من ذلك كله أنهم كانوا يدركون جيدا وجود عالم واسع جدا من الصحاري، يمتد الى الجنوب من بلاد المغرب خال من السكان تسوده الحرارة الشديدة ويعج بالضواري.

من الكتاب الإغريق القدماء الذين زاروا الصحراء قبل مجيء الرومان بمدة طويلة وكتبوا عنها نشير إلى "هيرودوث" الذي تجول بالبلاد الليبية القديمة خلال القرن الخامس ق.م ودون لنا عنها وصفا كثيرا... فبعد جمع المعلومات عنها، قسمها إلى ثلاثة مناطق رئيسة " ساحلية، وداخلية، ومنطقة ثالثة، تلي المنطقتين السابقتين، وصفها بأنها تعج بالحيوانات المفترسة، تسكنها جماعات سكانية متناثرة، قليلة جدا، وهي آخر ما يمكن أن يعترضنا من سكان الصحراء، ويضيف بأن المنطقة الداخلية تتميز بانتشار التلال الرملية بها مياه، على مسافة مسيرة عشرة أيام من "طيبة" إلى "أعمدة هيراكليس"* "[3].

من جهته تعرض المؤرخ اللاتيني "سالوستوس" "Sallustus" الذي عاش بإفريقيا، في النصف الثاني من القرن الأول ق. م، بصفته حاكم لها خلال فترة حكم قيصر، خلال تدوينه لكتابه الشهير "حرب يوغرطة" Bellum jugurthinum، بالذكر لبعض سكان البلاد النوميدية، فحدد موقع الجيتول في الشمال، ويليهم البدو، ثم ذكر الإثيوبيين، ووصفها بأنها مناطق متوهجة بشدة الحرارة[4]، وينفي وجود البشر بتلك المناطق من الأرض ويذكر بانها محدودة بمنطقة شبه ملتهبة من الحرارة. وهو بذلك يخالف في تصوره هيرودوث، الذي سبقه لزيارتها، والذي تكلم عن وجود منابع للماء في أعلى كل تل منها.

غير أن هذا التصور الذي كان موجودا عند هاذين المؤرخين لم يكن يتقاسمه معهما

البعض من مفكري العالم القديم آنذاك. فالتصور عند بطليموس مثلا، الذي كان يمثل قمة المعرفة الجغرافية في عهده[(5)]، يختلف عما سبق ذكره لدى كل من هيرودوث وسالوستوس، فعند تطرقه للمناطق الداخلية من ليبيا، يجعل من مناطق الصحراء، مناطق آهلة بالسكان، مع وجود عدد كبير من القبائل، ثم حدد مواقعها بالنسبة لمعالم تضاريسية مختلفة كالجبال، والأنهار، والشطوط[(6)]، ثم أشار إلى قبائل تقع في أقصى الجنوب عن الشريط الساحلي معرفا إياها بالقرامنتس مثلا، وعند تحديده لانتشارها لا يشير إلى أن الفاصل بينها هي الصحراء، بل يشير إلى أنهار مثل القير والنيجر*... وفي الأخير يتطرق بالذكر إلى بلاد الأثيوبيين[7] فيصفها بالأرض المجهولة...

مفهوم التصحر في الفكر اللاتيني والإغريقي القديم

لم يفسر قدماء المفكرين مصطلح الصحراء، بنفس التصور الشائع بيننا اليوم، كونها المناطق التي تغطيها الرمال وتسودها الحرارة اللافحة، بل على العكس، لقد تجاوز مفهوم التصحر عندهم فكرة قفار الصحراء الرملية، وأسقطوها على مناطق أخري كثيرة من المعمورة تسودها العزلة، حتى وإن كانت غير مغطاة بالرمال، إلا أن العامل المشترك الذي يوحد بينهما هو العزلة.

إستعمل الإغريق مصطلح **erèmos** لنعت الأمكنة والأفراد على السواء، أما من جانب المعنى فهي إشارة إلى المكان المعزول والمهجور. وبالإمكان إضافة كلمة **Khora** التي تعني بدورها البلد أو المنطقة، لنحصل في الأخير على معنى مكان تسوده العزلة .كما ان كلمة **è erèmia** تؤدي نفس الغرض والمعنى، مما يعني أن تلك الكلمات لها معنى موحد وهو العزلة[8].

أما في اللغة اللاتينية فإن مصطلح الإمتداد الصحراوي يأخذ على صفة الجمع مثل **Solitideness** التي تؤدي نفس معنى **erèmos** أو **deserta**[(9)] إسم مفعول مشتق من الفعل **Deseréré** الذي يعني فقدان الإتصالات مما يعني أن الصحراء هي مكان محروم من الإتصالات، وبالتالي غياب الإستمرارية أما من الناحية الإشتقاقية فهي عند اللاتين تعني عكس الرابط.

وقد ارتبط معنى القفار **desert** عند الكتاب الإغريق والرومان بكل ما هو خال من البشر أينما كان ذلك، وليس فقط في الصحراء. فهيرودوث يشير إلى حوالي أربعة مناطق قاحلة في منطقة سكيثيا **Scythie** *، خالية من البشر، كما يشير نفس الكاتب إلى وجود منطقة غير محدودة في نظره في منطقة شمال الدانوب وهي صحراء إستروس **Istros** التي يقصد بها أرض الجيتس **Getes** شرق البحر الأسود وشمال تراقيا، وقد تسببت في وجودها ظاهرة البرد الكبيرة[(10)].

في بعض المناطق من شمال الصحراء الجزائرية والتونسية مثلا إستطاعت الشطئان أن

تتسبب في تصحر المنطقة التي تغطيها بسبب هجرة الناس لها مما جعلها خالية من السكان، الأمر الذي دفع القدماء إلى إعتبارها تعاني التصحر(11). وعن إفريقيا نفسها، لم تكن كلمة صحراء محصورة في ما نعرفه بالصحراء الكبرى فبالنظر إلى ما أورده شيشرون CICERON عند كلامه عن سواحل جزيرة جربة التي يصفها بأنها أكثر تصحرا(12)، وليس هذا فقط بل أن فيلوسترات Philostrate يذكر بأنه إنطلاقا من نهر سالاكس Salex تصبح ليبيا صحراء ولا يوجد أناس بعد ذلك.

ونظرا لجهل الكتاب القدماء بالصحراء حاول البعض الإجتهاد من أجل تحديد بعض الإمتدادات لها إنطلاقا من تصورات شخصية وفرضيات غير مدروسة، من ذلك أن "أقريبا" Aggripa قدرها بحوالي 910 ميل وهو ما يساوي 1350 كلم، وقدرها بلينوس في حوالي 250 ميل روماني[13] . غير أن ما تجدر الإشارة إليه حول تلك التقديرات يعود إلى المساحة المقصودة بذاتها بحيث أن الأول أدخل في تقديراته مناطق أبعد من الصحراء التي كان يشير إليها بلينوس وهي المناطق الشرقية الليبية حتى بلاد القرامنتس في الجنوب .

بداية التوغل الروماني في الصحراء

تشير الدلائل التاريخية إلى أن سياسة الرومان منذ 146 ق م أظهرت في بدايتها عدم وجود النية في الإستمرار في الدفع بقواتهم نحو الغرب أو المناطق الجنوبية، بعد تحقيق هدفهم في القضاء على قرطاج، حيث عادت أغلب قواتهم إلى إيطاليا، ومالوا إلى إتباع منهج سياسة التدرج في الإحتلال [14]، مما جعل عملية التوغل الروماني بالصحراء تتأخر نسبيا، ولم تنطلق في وقت مبكر من تاريخ تواجدهم بالشمال الإفريقي، كون أن القادة الرومان، في العهد الجمهوري، لم تكن أولويات سياستهم هو توسيع رقعة البلاد باتجاه المناطق الجنوبية الصحراوية الواسعة، لكن بالمقابل لم يكن يعني ذلك نهاية الرغبة الرومانية في التوسع على حساب البلاد النوميدية والدول القائمة إلى الغرب من الحدود القرطاجية وإنهاء كياناتها السياسية، لأسباب عدة، تتصدرها مشكلة جهلهم لطبيعة المنطقة وسكانها، وحرصهم الشديد على عدم الكشف عن نواياهم السيئة إتجاه المنطقة ككل والتظاهر بالإكتفاء بالأراضي القرطاجية، بالأخص عندما تبينت لهم الأهمية الإقتصادية للمنطقة وما يمكن أن تلعبه منتجاتها من دور رئيس، في توفير الإستقرار لإيطاليا. لذلك صبوا إهتمامهم في مراحلهم الأولى على ترتيب أوضاع المنطقة من خلال توفير الظروف التي تمكنهم من إكمال سيطرتهم عليها، بفتح الأبواب أمام الإستيطان الروماني منذ سنة 123 ق م في عهد كايوس كراكوس, والإهتمام بالتنظيم الإداري والجبائي وإحصاء الأملاك، وهي السياسة التي إنطلقت بالفعل في ربيع 146 ق م، وقد مثلت تلك السياسة من جهتها جانبا من المشاكل التي إعترضتهم في إحكام قبضتهم على المنطقة، دون أن ننسى التأثير الخطير للصراعات الحزبية

على أوضاع الدولة الداخلية والخارجية، التي تحولت إلى ما عرف بالحرب الأهلية ولحسن حظ الرومان فإنها لم تدم طويلا حيث إنتهت مباشرة مع انتصار قيصر في معركة تابسوس سنة 46 ق م.

مع منتصف القرن الأول، أي منذ فترة حكم أوغسطس وتيبيريوس من بعده، وبمجرد إكتمال سيطرت الرومان على أراض الكيانين النوميدي والموريتاني، حتى بدأت تلوح في الأفق نوايا قادتها في ضرورة الإهتمام بالمناطق الواقعة إلى الجنوب من مستعمراتهم، لدوافع إستراتيجية وإقتصادية مختلفة، بالأخص لما أصبحت الشعوب المنتشرة على حواف الصحراء مصدر قلق حقيقي، يهدد المصالح الرومانية في الشمال، وعليه أصبح من الضروري مواجهتها، وتطورت هذه السياسة بشكل أوضح في فترة حكم الإمبراطور تيبيريوس، وهي الفترة التي عاشت خلالها كل منطقة المغرب الكبير ثورة تاكفاريناس والجيتول، إذ سمحت تلك الأحداث من تدشين مرحلة جديدة في السياسة الرومانية إتجاه المناطق الصحراوية وسكانها، خاصة في ناحيتها الجنوبية الشرقية الممثلة في منطقة البيزاسين وتريبوليتانيا. ومما لاشك فيه أن الدروس ألتي إستقاها الرومان من تلك الأحداث جعلتهم يقتنعون بضرورة أن لا تتكرر أو تستمر تلك الأوضاع على حالها طويلا. وزاد في قناعتهم أكثر التطورات التي تسببت فيها هجمات البدو راكبي الجمال على المدن الساحلية الأمر الذي فتح الباب إلى بداية أولى الإتصالات مع الصحراء رغم محدوديتها وطابعها العسكري، ومع ذلك لم تكن بدافع التوسع والاحتلال... إذ شهدت سنة 20 ق م، ما عرف بحملة بالبيوس كورنيليوس Balbus Cornelius التي جاءت كرد فعل إنتقامي ضد القرامنتس الذين أصبحوا يشكلون آنذاك تهديدا للمصالح الرومانية بمنطقة المدن الثلاث (تريبوبلتانيا) ويهددون إستقرار المنطقة بأكملها. وستمكن تلك السياسة الجديدة الرومان من التوسع في مجال واسع إمتد على خط مستقيم بلغ حوالي 2500 كلم، شمل المناطق التي بقيت على هامش المدن البونيقية الليبية، والممالك النوميدية بدرجة اقل، وبعبارة أخرى على هامش الحضارة الرومانية.

حملات الرومان العسكرية ضد القرامنتس وبداية تطور نظام الليمس التريبوليتاني:

كرد فعل على تعرض مدن الشريط الساحلي لهجمات قبائل القرمنتس إنطلقت حملة كورنيليوس بالبيوس* العسكرية من سبراته قاطعة مئات الكيلومترات في فيافي الصحراء، لتفاجئ سكان جرمة على حين غفلة منهم، ملحقة بهم هزيمة عسكرية كبيرة. غير أن تلك الحملة لم تكن تحمل أية أهداف سياسية أو رغبات توسعية بقدر ما كانت تأديبية، إستكشافية في آن واحد، ذلك أن المصادر التي أشارت إليها لم تتكلم عن أية اتفاق أو معاهدة تم توقيعها بين الطرفين. وتذكر المصادر أن هذا القائد قام بحملتين عسكريتين في سنوات 21 ق م ثم 19 ق م .

الحملة الثانية حسب ما ورد في كتابات بطليموس تمت من طرف Septimius Flaccus

حاكم نوميديا، بعد فترة قصيرة من الحملة الأولى، وبالضبط في عهد الإمبراطور دوميتيان كما أوردها Marin de tyr واستغرقت مدة ثلاثة أشهر، وكان هدفها في البداية هو تتبع فلول القرامنتس مرة أخرى، غير أن نتائجها كانت أكبر مما كان مرجوا منها وكانت من الأهمية بمكان، اذ انهه إلى جانب الهدف العسكري الذي أرسلت من أجله، مكنت الرومان من اكتشاف طرق جديدة نحو المناطق الصحراوية الجنوبية وبلغت بلاد الأثيوبيين(15).

وكما يستخلص من الأحداث آنذاك لم يكن التقدم في تلك المناطق البعيدة سهلا، فقد وجدت القوات الرومانية نفسها في مواجهة مشاكل لم يسبق لها أن إعترضتها، ترتبط باكتشافهم، على هامش الصحراء، لمجال جغرافي ذي مناخ شديد القساوة، وموطن شعوب لها حياتها وتنظيماتها الإجتماعية الخاصة بها، التي لا تستجيب البتة مع المعايير المألوفة لدى شعوب أخرى وصلوا إليها من قبل.

بعد مرحلة الحملات العسكرية الأولى بدأت مرحلة ثانية امتدت من العهد الفلافي حتى فترة حكم الإمبراطور هادريان، عرفت نشر العديد من المراكز العسكرية في المناطق الشبه الصحراوية، مع فرض الوصاية والتبعية على المدن التي كانت تسعى إلى التحول نحو الإندماج في الحياة المدنية الرومانية دون معارضة منها لواقع الرومنة الذي تريد روما تجسيده، ومن أمثلة ذلك واحات الجريد ونفزاوة، والمناطق الجبلية بالجنوب الشرقي التونسي، حيث مكنت وسائل الري التقليدية من تثبيت مجموعات سكانية إعتمدت على زراعة الأشجار، مما جعل الأثار تدل على وجود حياة إقتصادية نشطة شبه رعوية.

المرحلة الثالثة من التوسع تشمل فترة حكم السيفيريين، التي ميزها إقامة جهاز عسكري إداري في شبكة منقولة عن الواقع، مهمتها الرصد، ومنطقة إحتواء عسكري، يتم فيها تنظيم الليمس حول مسارات استراتيجية، تسمح بقيام دوريات للمرور وتنشيط التجارة لمسافات بعيدة. معتمدة على تسلسل هرمي في المراكز الثابتة ومراكز أمامية تستقر بها مفارز للفرقة الأوغسطية الثالثة، أو من المساعدين وجميعهم تحت قيادة مندوب من لامبيز...

نظام الليمس أساس الإستراتيجية الدفاعية للحدودية الرومانية

لما استكمل الرومان تمركزهم بالمناطق الغربية اتجهوا نحو الجهة الشرقية وتوغلوا في الصحراء، ومع نهاية القرن الأول بعد الميلاد عندما اتسعت الإمبراطورية الرومانية بدأت تتكون لديهم فكرة وضع نظام دائم من الوسائل الدفاعية على طول حدودها بسبب تهديدات البدو وتزايد وتيرة إثارتهم للقلق ضد مدن مناطق الساحل والواحات، الأمر الذي جعل مدن الأمبوريا في الشمال تحتاج إلى غطاء إستراتيجي من ناحية الجنوب، وكانت أولى خطوات تلك الإستراتيجية قطع الطريق على البدو وقواعدهم الخلفية أو التدمير السريع لأقوى الدول

الصحراوية.

من ناحية ثانية أدرك الرومان جيدا، بعد وصولهم إلى حافة الصحراء الشمالية، أن الظروف التضاريسية للصحراء تختلف عن نظيرتها بالشمال، وأنهم أمام واقع يحتم عليهم ضرورة إيجاد السبل الكفيلة لتعويض الحواجز الطبيعية مما يعني حتما بروز فكرة إبتكار وسائل اصطناعية كمنشآت أساسية تعوضهم ذلك النقص في الحماية يتولى مهمة تجسيدها مهندسو الجيش الروماني.

والواقع أن مثل تلك المخططات الوقائية لم تكن جديدة كلية، بالنسبة إليهم فقد طبقوها بإفريقيا بعد 146 ق.م بإحاطتهم قرطاج بالخندق الكبير fossa magna لفصلها عن نوميديا. وكانت بمثابة إشارة واضحة نحو تثبيت أنفسهم بالمنطقة كلها، وتمهيدا لمشروع توسعي شامل سيتم تنفيذه لاحقا، والذي سينطلق فعلا مع نهاية القرن الأول ق م، أي بعد نهاية حرب يوغرطة في 105 ق.م، بسبب توفر الظروف والأسباب لذلك، وسيدشنها يوليوس قيصر بعد إنتصاره في معركة تابسوس سنة 46 ق.م، وهي الحادثة التي عصفت، في الوقت نفسه، بآخر ملك نوميدي كان يطمح للإستقلال عن الرومان، بعد موالاته للبومبيين. ثم أعقب ذلك الحدث الكبير تشكيل الفرقة الأوغسطية الثالثة التي إستقرت في البداية بأميدارا Amaedara (حيدرة) ثم انتقلت في حوالي 75 م إلى لامباز Lambèze، ولعبت دورا رائدا في فرض النفوذ الروماني بالمنطقة سوءا الشمالية منها أو الصحراوية , وبالرغم من أنه لم يتم تنفيذ المشروع كاملا في عهد قيصر إلا أن من تولى العرش من بعده من الأباطرة كان أكثر حرصا على ذلك، فكانت النتيجة أن تسارعت وتيرة الإستعمار الروماني في عهد أوغسطس وتيبيريوس ونيرون وتراجان، هذا الأخير الذي شرع في عهده في إنتهاج سياسة فعالة لحماية الحدود ببناء مراكز مراقبة عسكرية على الحدود الإمبراطورية، وهي السياسة التي تواصلت بكل نشاط في عهد هدريانوس الذي يعود إليه فضل إنشاء مركز Gemallae.

أما خلال القرنين 2 و3م فقد أدرك القادة الرومان وبشكل أكثر وضوح أن المطلوب هو حماية حدود الإمبراطورية بتنظيم دفاعي حدودي أكثر دقة (أي الليمس) أساسه شبكة معقدة من الحصون والاستحكامات الأخرى، كالمنحدرات لتعرية هجوم العدو وكشفه أي ال"Glacis" وخطوط المواصلات ... لذلك اختيرت مواقعها على أساس إستغلال التضاريس إلى أقصى حد، مما يفسر الشكل الغير المنتظم لنظام الليمس[16]

وفعلا كان لتلك التوجهات السياسة تأثيرات عدة على الواقع السياسي والسكاني للمنطقة، فقد مكنت بدرجة كبيرة من تسهيل عملية الإستقرار أو الإبتلاع للقبائل البربرية المحلية، خاصة تلك التي جاد عليها الرومان بحق المدينة municipe وتحول سكانها إلى فلاحين مثل قبائل

نبقيني Nybgenii[17]. ومن النتائج الأخرى التي بإمكاننا الإشارة إليها باختصار شديد، وهي ذات طابع إيجابي، إنشاء الحواجز المائية وتثمين المساحات الزراعية للوديان الأمر الذي نجم عنه وجود عدد كبير من المساكن بالقرب من المزارع الغير المحصنة بتريبوليتانيا.

وبذلك حقق نظام الليمس الحد الفاصل، والحدود بين الإمبراطورية الرومانية، وعالم البرابرة، كما كان يريده الرومان، بنظام طرق وحصون منتشرة عبر امتدادات كبير، مكونا حاجزا بينهم وبين خصومهم من الشعوب الواقعة وراء ذلك الخط[18].

ومن أشهر نماذج أنظمة الليمس التي يمكن الإستدلال بها "الليمس التريبوليتاني" الذي يعود جزء كبير من إنجازه للإمبراطور الإفريقي الشهير سيبتيموس سيفيروس, تضمن نظام الدفاع الروماني ذلك، مجموعة إنجازات دفاعية مختلفة المظاهر، وهو تتمة لنظيره النوميدي والموريتاني الممتد من المحيط الأطلسي إلى خليج سيرت الكبير شرقا، موازيا لامتداد الجبال. وكغيره من خطوط الليمس الأخرى ضم شعوب مختلفة، كان الرومان يعتبرونها مرجحة لدفعها نحو قبول الحضارة الرومانية.

اختلف امتداد الليمس التريبوليتاني" نحو الداخل من منطقة إلى أخرى، باتجاه الصحراء حتى بلغ في بعض امتداداته **100** كلم.

والواقع ان نظام الليمس التريبوليتاني مثل آخر مظاهر نظام الليمس، امتد على طول السهول الشبه صحراوية الشرقية، خلال أقصى مراحل التوسع الروماني هنالك ويبدوا أن أهميته الاقتصادية قد نافست أغراضه الدفاعية فبالإضافة الى دوره في توفير الحماية لمنطقة الأمبوريا فإنه كان موجها لمراقبة طرق القوافل التجارية نحو فزان وبلاد الغرامنت، فالمتأمل لخريطة الطرق التجارية لليبيا القديمة في الصحراء يدرك بكل بساطة كيف انه اشرف على مراقبة طريقين رئيسيين وهامين: الأول تمتد من تاكابي نحو الشرق ليصل الى لبتيس ماغنا وقد ضم **18** مركزا وحصن مراقبة، الطريق الثاني ويتصل بالأول الذي يمر حول حوض واد سوفيغين وزمزم، وهي مناطق غنية بثروتها الفلاحية بالإضافة إلى كونها مراكز متقدمة جدا في كل من غدامس والقرية الغربية وبونجم، أين كانت تتمركز بها مفارز من الفرقة الأوغسطية الثالثة وقد بُدأ في تطوير هذا الجهاز إنطلاقا من مركز بيزيروس **Bezerios** الذي كان محتلا منذ عهد كمودوس، وتم الإنتهاء منه في حوالي **201** م تقريبا .ثم أضيفت له حصون جديدة في عهد الإمبراطور فيليب العربي بقصر الذيب كما تشير إلى ذلك الكتابات اللاتينية حيث يتضح أن المنظومة العسكرية تلك قد إتسعت وبقيت القوات التريبوليتانية تابعة للفرقة الأوغسطية تعتمد على حاكم نوميديا وضع تحت إمرة قائد برتبة **Praepositus limits** الذي أصبحت من مسؤولياته العسكرية الليمس التربوليتاني[19]

أوكلت مهمة حماية منطقة الليمس التريبوليتاني إلى الفرقة الأوغسطية الثالثة التي دعمت

بوسائل وإمكانيات إضافية كالفرق المساعدة من خيالة ومشاة، التي تزايدت أعدادها مع الزمن مستفيدة من المعلومات التي تحصلوا عليها من سوريا لمدة أكثر من قرن. وقامت روما بتكوين فرق محلية أكثر تلائما مع المناطق الشبه الجافة أو الصحراوية حيث أضيفت للفرق الثقيلة والبطيئة خيالة أكثر نشاط وفعالية مثل التراقيين والبالونيين، كان شعارها القوة والتنظيم وسرعة الحركية .

ومما سبقت الإشارة إليه يبدوا أن الليمس التريبوليتاني الروماني لم يقتصر دوره على الأهمية الإستراتيجية الدفاعية فقط، من خلال بنايات محصنة لضمان أمن المناطق الخلفية للبلاد وتطوير الفلاحة وتعمير المناطق المحاذية للصحراء، فقد أثبتت الظروف أنها كانت أكثر من حدود صحراوية وتجاوزتها إلى ثقافية عندما جعلت الممتلكات الرومانية على إتصال مباشر مع الأهالي والمستقلين عن النفوذ الروماني، وبذلك كانت للإتصال أكثر منها للقطيعة الجذرية[20]، فقد اقتنعت روما بعد فترة أن من مصلحتها إقامة علاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل حيث يتم الاعتراف المتبادل بسلطة بعضهما، وتمكين المساعدات بينهما، بتقديم فرق الجيش العسكرية للسهر على حماية خط الليمس، ومن خلال ذلك تمكنت الرومنة والمسيحية من الوصول إلى مناطق لم تكن تحت السيطرة الرومانية[21].

وفي الأخير نصل إلى القول انه من غير الممكن التسليم بفكرة أن إنشاء نظام الليمس قد تم لغرض واحد فقط وهو ترويض البدو الرحل في شمال الصحراء وحاجزا ضد غاراتهم ولكن كذلك لتثبيت المجموعات السكانية من الحضر المزارعين على أراض واسعة في مناطق منظمة توكل لعناصرها أمور الأمن، لذلك لم يكن الليمس خطا دفاعيا عاديا كما أعتاد الكثيرون على وصفه، ولكنه منطقة حيث يتم تنظيم كل شيء من أجل حماية الإمبراطورية*، بشبكة من الطرقات المحصنة، تسمح بتحرك القوات العسكرية من الخلف إلى الأمام[22]. إنه حقا إنجاز عسكري بالدرجة الأولى غير أنه بالإضافة إلى مهمة حماية الحدود، مثل حدا ثقافيا فاصلا بين الرومان وغيرهم من البرابرة، ووسيلة لمراقبة تحركات السكان المحليين[23].

دور الرومان في دخول الجمل إلى الصحراء الإفريقية

ما زال الجدل قائما بين المفكرين حول قضية وصول الجمل إلى الصحراء التي يكتنفها الكثير من الغموض بسبب عدم توفر الأدلة التاريخية والأثرية حول ذلك، ويرجح الكثيرون أن حاجة الرومان إلى تعزيز تواجدهم العسكري والتجاري هو الذي كان الدافع في جلبه إلى المنطقة مستقدمين اياه من الشرق في ما بين القرن الثاني والرابع ميلادي، وبذلك تسقط فكرة الكثيرين ممن يتصورون بأن الجمل حيوان محلي، وخاصة أن الحقائق التاريخية لم تستطع إثبات وجوده بمنطقتنا، بل إن حتى بعض الحيوانات الأقل أهمية منه من حيث التكيف مع المناخ الصحراوي

وقساوته، سبقته إلى التواجد بها، مثل المعز والغنم والحصان والحمير والبغال والفيل بنوعيه الأطلسي **Elephas atlanticus** والإفريقي **Elephas africanus** [24]، الذي إستمر موجودا حتى القرن الثالث الميلادي. فعلماء الباليونتولوجيا يتفقون بالإجماع على وجود جمل العصر الجيولوجي الرابع الذي تم العثور على بقايا عظمية له بمختلف مناطق المغرب من نوميديا حتى موريتانيا في الغرب مع إحتمال أنه لم يكن حيوانا مدجنا[25] .

ونظرا لأهمية هذا الحيوان والدور الكبير الذي أصبح يلعبه في عملية النقل بالصحراء باعتباره سفينة الصحراء. جعل المؤرخين يعتمدونه في تحديد بعض القياسات الكرونولوجية، كما هو الحال عليه في دراسة مراحل الفن الصخري بالصحراء التي قسمت إلى قسمين اعتمدت فيه فترات تواجد الجمل بها، الأولى مرحلة ما قبل الجمل **Précameline** وتعود للفترة النيوليتية والمرحلة التاريخية **Protohistorique**. ومن ناحية ثانية تشير الدراسات التي أجريت على الرسومات الصخرية الصحراوية بأن الحصان كان قد سبق الجمل في دخول الصحراء بمدة ليست بالقصيرة ذلك أن الأحصنة ذات اللحية **Chevaux Barbes .** وصلت بلاد المغرب بعد استقرار الهكسوس في مصر .

واعتمادا على الرسومات الصخرية يكون الحصان قد تواجد بين **1000** و**1500** سنة ق.م[26] قبل مجيء الجمل إلى الصحراء الوسطى والشرقية أما في مصر فقد رافق إستعمال الحصان بروز العربات القتالية، لم تفلح البقايا العظمية المكتشفة في تحديد عمر الجمل بصحراء شمال إفريقيا[27]. وبعد الدراسة والمراقبة التي قام بها عدة علماء مثل قوتييه **Gautier E.F** وريغاس **Reygasse** ثم ملاحظات بعض المستشرقين أمثال ديسو **dussaud** وموريي **Moret**، أمكن ملاحظة بعض التناقض في تحليلاتهم. ففي الوقت الذي يعتبر فيه قوتييه التوافق الكبير بين الرسومات الصخرية وبين ما ذكره هيرودوث حول القرامنتس، مما يعني شهادة حقيقية حول إمبراطورية القرامنتس، إلا أن كل من "رايقاس" و"ديسو" وموريه لهم نظرتهم الخاصة ويرجعون ذلك إلى تأثيرات فنية متوسطية، ذلك أن الثياب التي يحملها الأشخاص في الصور ليست ذات طابع محلي. ويضيف هذان المفكران أن الأمر يتعلق بتأثير أسيوي وميسيني خاصة منها الصور الممثلة للأحصنة الراكضة، وعليه يكون دخول الحصان إلى ليبيا قد تم عن طريق الإغريق، وهو الأمر الذي أدى إلى وجود تشابه بين الأشكال المرسومة الصحراوية والميسينية ثم الساسنية فيما بعد.[28]

من ناحية أخرى يذهب ريغاس إلى أن هذا الحدث له علاقة بشعوب البحر التي غزت مصر في حوالي **1200** ق م الى **1000** ق م غير أنه إذا كان علماء الأثار يجدون تشابها في الملابس التي تظهر على صور النقوش وملابس الدوريين، فإنه من دون شك أنه وجدت عربات خاصة

بالقرامنتس الذين تعاظمت قوتهم مع القرن الثامن ق م وأصبح شعبا محاربا يستعمل العربات الحربية التي تجرها الأحصنة، وقد ظهرت فعلا تلك العربات خلال حصاره لمدينة ساغونته Sagonta وخلال معركة تريبيا عرفوا بتميزهم في القتال[29].

هناك نصبا منقوشا في أوستيا ostia مؤرخا بالثلاثين عام الأخيرة من القرن الأول ق م، يبين إستخدام الفيل والجمل في الألعاب التي كانت تجري في ساحات الملاعب الرومانية، وقد غنم قيصر سنة 46 قم 22 جملا من الملك النوميدي يوبا الأول. كما وردت صورة الجمل على عملة الرومانية عرفت باسم spintrian وهي عملة يذكر أنها كانت تسك لكي تستخدمها الغواني [30].

غير أن نجاح التعامل التجاري للرومان مع جيرانهم، جعل الحياة الإقتصادية في الصحراء ترتبط إرتباطا كبيرا بمشكلة المواصلات، وبالنسبة للعصور القديمة اليونانية والرومانية، فإن غنى أقاليم معينة مثل فزان المرتبطة بمجال نفوذها يقتضي ضمان وجود حجم كبير من تجار ووسائل مواصلات. ولو أن المادة الأثرية تتناقص كلما إتجه الباحث نحو الجنوب عند محاولة معالجة الوضع التقويمي الخاص بالإقتصاد والنفوذ السياسي، وتختفي كلية في السافانا التشادية[31]

فالنصوص اليونانية واللاتنية أشارت إلى الياقوت الأحمر أو العقيق الأبيض والحجارة الكريمة من بلاد الجرمانتيين، والتروجلودتيين(سكان الكهوف) والنساموسيين كمصدر للعبيد ومن جهته كان إفتتاح الملاعب يقتضي وجود الحيوانات المختلفة، فبعد إفتتاح ملعب فلافيوس تقاتل تسعة آلاف حيوان... وكانت أغلب الحيوانات ليبية إفريقية تم إستيرادها من القارة الإفريقية[32]. مما يشير الى حجم تجارة كبيرة مع تلك البلاد.

عند تصفحنا للمصادر القديمة نجد ان المؤرخ الإغريقي هيرودوث قد تكلم عن البلاد الليبية عند زيارة لها وذكر ووصف أشياء كثيرة، حيث كتب عن العربات التي يمتطيها القرامنتس لمطاردة الإثيوبيين سكان المغارات، تجرها أربعة أحصنة، وذكر العديد من الحيوانات الصغيرة منها والكبيرة النافعة والضارة، غير أننا لم نجد بين أسطر تاريخه ذكرا للجملّ. والأمر لا يقتصر على هيرودوث وحده فخلال القرن الرابع والثالث، أي فترة الحروب البونيقية، لم يرد أي ذكر لذلك الحيوان، بينما لعب الفيل دورا رئيسا في تلك الحرب الطويلة، واستمر الأمر كذلك حتى القرن الأول عندما كتب سالوستوس كتابه حرب يوغرطة التي جرت أحداثها في إفريقيا الشمالية، كما أن الكاتب بالاضافة الى قضائه فترة معتبرة من الزمن كحاكم في نوميديا، وكتب عن تاريخ بلاد المغرب وحياة سكانها سواءا في نوميديا أو الصحراء الشرقية (كورينا وتريبوليتانيا)، ومع ذلك غاب ذكر الجمل كلية .وكان لا بد من إنتظار القرن الثالث الميلادي حيث ورد ذكرا لذلك الحيوان كحيوان أليف له طريقته الخاصة في التعامل والإستعمال في

الحياة اليومية للسكان بالمغرب فقد ذكر أرنوب Arnobe بأنه لابد من إنحناء الجمل لكي يتم وضع الأحمال وتفريغها من فوقه(33).

يصر المؤرخ الفرنسي قوتييه على أن الجمل كان حتى القرن الثاني الميلادي غير معروف، وأدى ظهوره بأعداد كبيرة على الحدود الجنوبية إلى تهديد أمن المدن الساحلية الخاضعة للرومان والولاية الأفريقية ككل، لكن مع نهاية القرن الثاني الميلادي إصطدمت روما مع هجومات القبائل البدوية الممتطية للجمال التي ظهرت في تريبوليتانيا. ومع ذلك يذهب ليشي Leshi من جهته إلى اعتبار أن الجمل كان موجودا في إفريقيا الشمالية قبل القرن الرابع الميلادي، وبما انه لم يتم ذكره من طرف المؤلفين من أمثال بلينوس فهو يرى بأن الرومان لم يوظفوه وأبعدوه إلى ما وراء الليمس. غير أن الأمر لا يبدو منطقيا كون أن الكلام عن حيوان لغرض علمي لا علاقة له بعدم إستعانة الرومان بخدمات الجمل في الوقت الذي ورد فيه كلام كثير عن الحصان والمعز والثور والحيوانات المتوحشة المختلفة! فلماذا أقصي الجمل إذن؟ وعليه فإذا كانت النصوص التاريخية حول الجمل في إفريقيا الشمالية نادرة جدا فإنها في الصحراء منعدمة كلية.

الإشارة الحقيقية لحيوان الجمل قد وردت من طرف أميان مارسيلوس Ammien Marcellus خلال الإعتداء الذي تعرضت له لبسيس ماغنا سنة 363 م، من طرف بدو الصحراء ثم إستنجادها بـ:Comes Romanus، الذي رفض تقديم المساعدة لها إلا بعد الإستجابة لشرطه بتسليم أربعة آلاف جمل[34]... وفي هذه الحالة يظهر لنا جليا بأنه خلال القرن الرابع الميلادي أصبح للجمل تواجدا وانتشار كبيرين بالمنطقة وتعددت إستعمالاته، ولم تعد تقتصر على عبور الصحراء بل وسيلة فعالة في الحروب فحسب بروكوب لم يتمكن الوندال من قهر المدافعين عن مدينة طرابلس والسبب أن الجياد كانت تخشى كثيرا الجمال.

ولتدعيم كلامنا السابق نشير إلى أن بعض المصادر الأدبية اللاتينية مثل الكاتب كونتي كورسي Quinté Qurcé عند إشارته إلى حملة الإسكندر المقدوني على مصر في نهاية القرن الرابع ق م ذكر جملا يحمل قربا من الجلد... ومع ذلك لم يظهر في المصادر إلا بعد مدة طويلة من الزمن، أي أثناء حملة قيصر على إفريقيا(35).

في الأخير نقول أن التواجد الروماني بالصحراء قام على سلام مؤقت بعد اكتشافه أن قسوة الصحراء لم تقتل الصحراء، وأن النشاط الإنساني مستمر بها، فلم تمنع ظروفها نشأة الثقافة بها، كاللغة والكتابة، وأن محاولات الثثاقف التي أنتهجها لتغيير الواقع كانت محدودة إلى حد كبير، وما كان بمقدور التحصينات العسكرية التي وضعت لضمان سلامة الحدود وتأمين وصول السلع والبضائع إليها لتصمد طويلا أمام رغبة الأهالي في التخلص من الرومان. كما أن جلب الجمل إلى إفريقيا لم يكن ليضمن للرومان هيمنتهم المطلقة ورواج مصالحهم الإقتصادية بقدر ما كان وسيلة

استغلها الأهالي لمصالحهم الاقتصادية وتهديد أمن المناطق الرومانية.

الهوامش:

1) محمد سحنوني، ما قبل التاريخ، ديوان امطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1999، ص 20.

2) Desanges; Le Sahara lien entre les peuples et les cultures

* يقصد بها مضيق جبل طارق في وقتنا الحالي

3)Herodote ; Histoires Hérodote, IV, 181.

4) Desanges ; Bellum Jugurthinum ; XIX, 5-6.

5) Desanges ; Le Sahara lien entre les peuples et les cultures ; opcit

6) Ptol., IV, 8, p.788-790

* يرى المؤرخ ديسناج Desnanges بأن تك التسميات لا علاقة لها بما نعرفه اليوم باسم نهر النيجر وإن الأمر يتعلق بتسميات ذات جذور ليبية فينيقية تعني المياه الجارية، وبالتاي فإن ما أوره من تسميات هي خيالية أو وليدة اعتقاد بان للنيل روافد تنبع من أطراف موريطانيا الأطلسية.

7 استعمل البعض مصطلح الأثيوبية على السكان الزنوج لإفريقيا ويبدو أن الأنثروبوبلوجوين والمؤرخين لم يحللوا دائما المشكلة تحليلا جيدا حيث ان معيار الزنجية، ما يزال قاصرا مبهما غير محدود، ولوقت طويل ساد الإعتقاد بأن وجود سكان بيض في الصحراء كان أمرا حديثا فقط، وغزوا منتظما نتيجة طرد الرومان لبربر السهوب من أراضي المغرب.

8) Desanges Le Sahara lien entre les peuples et les cultures

9):في القاموس اللتيني ورد ما يلي: desert , solitude desertus –deserta n. pl deserus

Dictionnaire abrégé latin- français ; Felix Gaffiot. Hachette 1937 ; p 188.

* تقع منطقة سكيثيا schythia بشمال منطقة البحر السور، يعود اصل سكانها القدماء لإيران.

10) Hérodote, V, 9-10; cf. aussi Strabon, VII, 3, 14, C305, pour qui c'est le désert des Gètes.

11) Desanges ; Le Sahara lien entre les peuples et les cultures ; opcit

12) Desnanges ; Le Sahara lien entre les peuples et les cultures ; opcit

13) Pline l'Ancien, VI, 208. Id., VI, 209; cf. déjà V, 38, où il est précisé que cette "largeur" (latitudo) est celle de "l'Afrique de Cyrène" ((Africa Cyrenaica).

14) محمد البشير شنيت

* كونيوس بالبوسلوسيوس Luçius Cornllius Balbus:ولدفي قادش بإسبانيا عينه مجلس السينات سنة 21 م حطما على الولاية افريقية AFRICA VETUS

15) Ptol., I, 8, 4, p.21.

16) T. Niane and Others ; Ancient Civilation of Africa

17) Euzennat Maurice. La frontière romaine d'Afrique. In: Comptes-rendus des séances de l année - Académie des inscriptions et belles-lettres, 134e année, N. 2, 1990. pp. 565-580.

18) – يتنوع مظهر الليمس بين طبيعي واصطناعي ففي الحالة الطبيعية قد يتشكل من انهار مثل الراين والدانوب والفرات وقد يكون من نوع جبلي مثل جبال الكاربات، او الاطلس في موريتانيا، وهنالك نمط اخر مثل الصحراء كما كان الحال عليه في جنوب مصر او في شبه الجزيرة العربية ... اما النوع الثاني فهو اصطناعي بدوره يتنوع مثل صور هادريان في بريطانيا او انشاء حصون على مسافات مدروسة مثل الليمس التريبوليتاني.

19) Systèmes défensifs de l'afrique romaine, Wikipedia. org , Derniere modification de cette page le 24 décembre 2010 a 19 :02(le nom d'auteur ne figure pas)

20) Hedi Slim , Ammar Mahdjoubi, Belkhodja khaled ; Histoire général de la tunisie : L'Antiquité ; Maisonneuve et Larose ; Paris ; 2003 ; p 310

21) Ibid ; opcit ;p 310.

* وجدت أنظمة الليمس في كل مكان من الإمبراطورية الرومانية كبريطانيا (أسوار هادريان)، وفي الدانوب، والفرات، والبلاد العربية ثم في إفريقيا ... للإشارة أن ذرك النظام مس المناطق الإستراتيجية للإمبراطورية الرومانية ن ساهم في إنشاءه أباطرة كثيرون مثل هادريان في بريطانيا، ونيرون بمنطقة الدانوب، وتيربيريوس في كابادوكيا، وتراجان في الشرق في مواجهة الفرس بين (**114–117** م)، والسيفيريين في تريبوليتانيا.

22) Dallier (Pierre) ; Terre d'affrontement : Le sud tunisien … ; Nouvelle edition Latines ; Paris ;1985 ; p 22.

23) Bardouille Jerome ; L'importance du genie militaire dans l'armée romaine à l'epoque imperiale ; p 79-87 .

24)Demougeot Émilienne. Le chameau et l'Afrique du Nord romaine. In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 15e année, N. 2, 1960. pp. 211

25) Chenouf Ahmed Boudi ;Le chameau au Maghreb ; les debats

26) Demougeot Émilienne. Le chameau et l'Afrique du Nord romaine.opcit

27)Lhote Henri, a Le Cheval et le Chameau dans les peintures et gravures rupestres du Sahara », dans Bull. de l' Institut francais d'Afrique Noire, Dakar, XV, juillet 1958, p. 1140, d'apres les travaux de M. REYoAssE et R. VAUFREY.

28) Lhote Henri le cheval et le chameau

29) Demougeot Emmillienne ; le chameau et L'afrique du nord ;

30) T. Niane and Others ; Ancient Civilation of Africa

31)T. Niane and Others ; Ancient Civilation of Africa ; opcit

32) T. Niane and Others ; Ancient Civilation of Africa ; UNESCO ; 1986 ; p 541.

33) Ibid ; opcit ;

34 Ammien Marçellus ; Histoire de Rome ; XXVIII , 6 , 5 .

35) Hedi Slim , Ammar Mahdjoubi, Belkhodja khaled ; Histoire général de la tunisie : L'Antiquité ; Maisonneuve et Larose ; Paris ; 2003 ; p 310